خطبة صلاة الجمعة 12/ 6/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(صدقة السر)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

قال ابن كثير: يهدي إلى الرُّشد أي يهدي إلى السَّداد والنَّجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

قال المفسرون: معنى قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَّشَد والرُّشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ✕: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الحادية والعشرون في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منَّا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتُقدِّم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى، تعينه على رؤية الطريق وتُمكِّنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزةً تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة، لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(صدقة السر)**

المسألة: منذ صغري كفاني الله وآواني ولم يحوجني إلا إلى وجهه الكريم، ولكن في الشدة التي نعيش وفي الأخبار التي نسمع بدأت أخاف على نفسي وأهلي أن تقل النفقة أو أن أحتاج إلى غير الله تعالى، أسمع آياتِ الرزق وأحاديثَه فأطمئن، ثم أسمع أخبار الغلاء والحصار فأضطرب، وما بين اضطراب واطمئنان أسأل: هل من عمل أعمله أنجو به من هذه الشدة وأسلم به من هذه الضائقة؟ أرشدوني.

الدليل الإرشادي:

في دليل اليوم أمر واحد، لمن أراد أن ينجو من هذه الشدة ولمن رجا أن يسلم من هذه الضائقة.

إنه الخبيئة، إنه زورق النجاة، إنه الماء التي تطفئ غضب الرب، إنه مكفر السيئات، إنه الوسيلة التي تسأل بها ربك السلامة، إنها صدقة السر.

أيها الإخوة:

الصدقة محمودة في السر والعلن، وقد قرأت في القرآن الكريم خمس آيات تتحدث عن إخفاء الصدقة وإعلانها وتتحدث عن نجاة المتصدقين إذا اشتد الكرب وطما الخطب.

ففي سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274].

وفي آية ثانية من سورة البقرة: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 271].

وفي سورة الرعد: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 22].

وفي سورة إبراهيم: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 31].

وفي سورة فاطر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29، 30].

فالصدقة محمودة مشكورةٌ ظاهرةً وخفية، سراً وعلانية، تنجي صاحبها من الهلكة وتدخله في قوم لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزنوا، وتجعل عاقبة الدار لهم في الدنيا والآخرة ويكفر الله عنهم بها سيئاتِهم ويوفيهم أجورهم ويزيدُهم من فضله.

وستتحدث خطبة اليوم عن صدقة السر.

قال ابن كثير في تفسير ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: (فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضلُ من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، ونحو ذلك، والأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: -وفيه- ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: "لما خلق الله عز وجل الأرض، جعلت تميد، فخلق الجبال، فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالت: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم، النار قالت: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله".

وروى عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: "سر إلى فقير، أو جهد من مقل".

وفي الحديث المروي عند الطبراني في الكبير: "صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل".

وقال ابن أبي حاتم: أنزلت هذه الآية في أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فأما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ: فقال له النبي ﷺ: "ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟ ". قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ. فقال له

النبي ﷺ: "ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟". فقال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر رضي الله عنه، وقال: بأبي أنت يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً.

وقوله: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي: بدل الصدقات، ولا سيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات.

وقوله ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزيكم عليه سبحانه وبحمده).

إنّ صدقة السر من خير ما ينفع في هذه الأيام، فمن استطاع أن تكون له خبيئةٌ من صدقة فليفعل.

يصل بها أخاه ويطفئ بها غضب الله.

يعين بها أهل النائبات ويستنزل بها الرحمات.

يساعد بها أهل الحاجة ويتوسل بها لله عند الحاجة، كما توسل الذين أووا إلى الغار.

ولا زال الصالحون يستحبُّون أن يكون للرجل خبيئةٌ من عملٍ صالحٍ، لا تعلم به زوجته ولا غيرها.

أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه قال سيدنا الزبير بن العوام ﷺ: **«من استطاع منكم أن يكون له خَبء من عمل صالح فليفعل»**.

وذُكِر ابن المبارك عند الإمام أحمد فقال الإمام أحمد: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئةٍ كانت له».

وأعمال السر هي أشد الأعمال على الشيطان، وإذا انتشرت بين المسلمين ظهرت البركة فيهم وعم الخير بينهم.

روت كتب التراجم عن سيدنا أبي بكر الصديق ﷺكان إذا صلى الفجر خرج إلى الصحراء فاحتبس فيها شيئاً يسيراً، ثم يعود إلى المدينة، فعجب عمر ﷺ من أمره فلحقه، فدخل الصدّيق خيمة ولبث فيها قليلاً، فلما خرج دخل عمر ﷺ إليها فإذا فيها عجوز ضعيفة وعندها صبية صغار، فسألها عمر: من هذا الذي يأتيكم؟ فقالت: لا أعرفه ولكنه رجل من المسلمين يأتينا كل صباح فيكنس بيتنا، ويعجن عجيننا، ويحلب شاتنا، فخرج عمر وهو يبكي.

إنها صدقة السر!

وروي نحو هذه القصة عن سيدنا عمر ﷺ، كان عمر بن الخطَّاب ﷺ يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل، ورآه طلحةُ ﷺ باللَّيل يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهاراً، فإذا هي عجوزٌ

عمياءُ مقعدةٌ، فسألها: ما يصنعُ هذا الرَّجلُ عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني؛ يأتيني بما يُصلِحُني، ويُخرِج عنِّي الأذى، فقال طلحة: ثَكِلَتكَ أمُّكَ طلحةُ، عثراتِ عمر تتَّبع؟.

إنها صدقة السر!

نقلوا عن زين العابدين عليّ بن الحسين ﷺ وعن أبيه وجده أنه كان يحمل أكياس الدقيق على ظهره بالليل ويوصلها إلى بيوت الأرامل والأيتام والفقراء، ولا يستعين بخادم ولا عبد لئلا يطّلع عليه أحد، فلما مات وغسّلوه وجدوا على ظهره آثاراً سوداء، فقالوا: هذا ظهر حمّال وما علمناه اشتغل حمّالاً!.

وانقطع الطعام بموته عن مائة بيت كان يأتيهم طعامهم بالليل، فعلموا أنه هو الذي كان يحمله إليهم وينفق عليهم.

إنها صدقة السر!

أيها الإخوة:

ذنوب الخلوات سبب الانتكاسات، والطاعات المستورات سبب كشف الكربات، وإنّ الله يحب العبد التقي الغني الخفيّ.

وكلما زاد المسلم في إخفاء الطاعات كلما زاد ثباته، كالوتد المنصوب، يثبت ظاهره بقدر خفاء أسفله في الأرض. فعليكم بصدقة السر.

وبعد أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأشباهه: لن تجد مُذْهِباً لخوفك ومسكناً لاضطراب قلبك مثلَ صدقةِ السر، فخذ منها ما استطعت ولو أن تفرغ من دلوك في دلو أخيك ولو أن تبذل لها شق تمرة. والله أعلم.

ختاماً – أيها الإخوة:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

والحمد لله رب العالمين